



39

العقل العربي

تأليف: رافائيل باتاي

ترجمة: علي الحارس

الفصل العاشر

الحُدية والعاطفة، الخيال والواقع

1. الاستقطاب

أثار صدمة لدى العديد من الباحثين الغربيين ما يظهره العرب علانية من ميل لاعتناق رؤية مستقطبة حول الإنسان والعالم، حيث يرون تضادا واضحا ولا يرون تدرجا، ويلاحظون العكس لا الانتقال، ويفهمون الأمور بشكل حدي دون ملاحظة الفروق الدقيقة. وكما قال لورنس العرب يوما:

ليس لدى الساميين قدرة على رؤية التدرجات اللونية. فهم أناس لا يعبؤون إلا بالألوان الرئيسية، أو بالأحرى: اللونين الأسود والأبيض فقط. ويرون العالم محددًا بخطوط... إن هؤلاء الناس ليسوا مولعين بالأسود والأبيض في الرؤية فحسب، بل في أثاث بيوتهم أيضا: ولا يستعملون الأسود والأبيض للوضوح فقط، وإنما للتعقيد أيضا، ولا ترتاح أفكارهم إلا عندما تتعامل مع الحدود، وهم يتمسكون بها مع سبق الإصرار¹

ولم أستطع أنا نفسي أن أتحاشى وضع المقارنة نفسها مرارا وتكرارا عندما، وعلى سبيل المثال، أكون في مسرح أو صالة سينما عربية وأسمع التعليقات العالية من الجمهور وهي تملأ الممرات وتخرج من الأبواب. وعادة ما تكون هذه الآراء متماشية مع مبدأ (الأسود والأبيض)، فالفيلم إما أن يكون «ممتاز» أو «رائع» أو «عظيم»، أو أن يكون «كريه» أو «مثير للاشمئزاز» أو «تافه». ومن النادر جدا أن يسمع المرء أي تقييم بعيد عن أن يكون شاملا أو قبولا حماسيا أو رفضا مطلقا.

(1) لورنس العرب (T. E. Lawrence): أعمدة الحكمة السبعة، ص 265.

الفصل العاشر: الحدية والعاطفة، الخيال والواقع

وفي البحث عن أصول هذه الظاهرة، حاول بعض المستعربين أن يفسروا هذا الميل إلى الحدود من خلال عزوه إلى التفاوتات التي تميز الصحراء، وأصروا على رأيهم هذا، وتبعاً لرأي ليون غوتيير، وهو من أهم مؤيدي هذه الاتجاه في التفكير، فإن الصحراء تركت انطبعا عميقا في الروح العربية، وفي وسط صحراء شبه الجزيرة العربية يلاحظ أن «الصيف القائن يتبعه شتاء فارس، وحتى ضمن الفصل نفسه يمكن ليوم حارق أن ينتهي بليلة جليدية»، حتى أن الطبيعة نفسها تتصف بالتفاوت الحاد ذاته، والذي لا يترك صداه في الروح العربية وحدها، وإنما يتجاوزها إلى أكثر الجوانب المختلفة للثقافة العربية. وتبعاً لغوتيير فإن:

العرق الذي يتشكل في بيئة كهذه، وإن كانت تتمتع عادة بالهدوء والفرغ، يكون عرضة لانفجارات عاطفية مفاجئة وسريعة، ولاارتفاع لحظي في الطاقة ولكنه غير قابل للممانعة، وإلى أشكال متنوعة من كرم النبلاء والعنف المتوحش. إن العربي يمكنه أن يكون في الوقت نفسه جشعا ومنفقا، بخيلا وكريما، يستحق التقريع والإشادة، وبهذا يظهر العربي مزيجا مشوشا من الميول المتفاوتة. وعنده تلتقي الحدود وتمتزج، أو تتبع بعضها بعضا دون نظام محدد: فليس هنالك انتقال من أمر لأمر، ولا تدرج، ولا فروق في المشاعر والأفكار.²

وفصل غوتيير الكلام حول «ترادف الحدود»، والذي رأى بأنه يشكل خصيصة من خصائص موقف العربي وأفكاره، وباستطلاع سريع يظهر غوتيير هذا الترادف الذي يحصل للأضداد في الطعام، واللباس، واللغة، والبناء، والزخارف التزيينية، والموسيقا، والأدب، والشعر، والتاريخ، والمؤسسات الاجتماعية والدينية في الدول العربية، وفي «التناقض الناتج عن ترادف العوائل التي يحكمها زعيم قوي في قبيلة أو دولة تتنازعها الفوضى»، وخلص غوتيير إلى استنتاج مفاده أن هنالك «مزيج ملحوظ من الأعراف الديمقراطية والاستبداد الحكومي

(1) كتبت الدراسة في وقت كان الباحثون لا يزالون يستخدمون فيه مصطلح (عرق) بينما نفضل في أيامنا هذه أن نستعمل مصطلح (شعب) عوضا عنه.

(2) ليون غوتيير (Léon Gauthier): مقدمة في دراسة الفلسفة الإسلامية: ص34-36.

الفصل العاشر: الحدية والعاطفة، الخيال والواقع

يميز المجتمع المسلم¹. وبينما ليست كل الأمثلة التي اقتبسناها من غوتبير ذات دقة كبيرة، فإن فكرة الحدود باعتبارها إحدى خصائص العقل العربي يبدو أنها ذات أساس صلب من الحقيقة.

وهذه وينيفريد بلاكمان، والتي أمضت عددا من السنين في قرية مصرية تقع في أعالي النيل، سجلت عددا من الملاحظات على التفاوت الحاد الذي يلاحظ بين منطقة وادي النيل الخصبة وبين ما يحيط بها من صحراء قاحلة جافة. حيث وجدت أن هذا التفاوت ينعكس من خلال شخصية الفلاح المصري. فكتبت:

من الحقائق المميزة أن أكثر الصفات اختلافا في الشخصية يمكن أن توجد في فرد واحد. فالفلاحون المصريون... بشكل عام مبتهجون وراضون عن حياتهم بشكل مدهش. وهم سريعو الفهم والبديهة، ويحبون النكتة بشغف وإن كانت موجهة ضدهم. وعادة ما يتمتعون بذاكرة حادة، وهم بعيدون عن الهموم، ولطيفون وشديدو الكرم، إضافة إلى أنهم يعملون بجهد.

لم تكن تلك إلا جانبا واحدا من الصورة. أما الجانب الآخر، وكما تراه بلاكمان، فهو أنهم «في الوقت نفسه عاطفيون جدا، ومخادعون جدا، وسريعو الانفعال. وبالعموم شديدو الجهل. ولا يخفى على من يراقبهم أنهم يفتقدون تقريبا كل ما له علاقة بضبط النفس». وبخاصة «تحت تأثير الغيرة، والتي تتحول دوما إلى رغبة مستعرة، فيصبح الرجل أو المرأة قابلا لارتكاب أي نوع من الجرائم العنيفة». وتضيف بلاكمان أنه حتى الرجل الحصيف المؤدب المسالم قد يتحول بين لحظة وأخرى إلى مجرم متوحش².

وثمة مظاهر أخرى تعبر عن تجمع الأضداد في شخصية الفلاحين في شمال مصر، حيث كتبت بلاكمان أنه بينما لم يكن هؤلاء شعبا مولعا بالحروب «ففي القتال الذي

(1) غوتبير: مصدر سابق: ص 37-64.

(2) وينيفريد بلاكمان (Winifred Blackman): الفلاحون في شمال مصر: ص 23-24.

الفصل العاشر: الحدية والعاطفة، الخيال والواقع

ينشب ما بين القرى، والذي ليس أمراً نادراً، ببذون أحيانا قسوة مفاجئة». وفي موقفهم تجاه الأعراب، أي من ينتمون إلى قرية أخرى، تجد تضادا عجيبا: فهم «يعاملون بحسن الضيافة والبشاشة باعتبارهم ضيوفا»، ولكن «في بعض الأحيان، ينظر إليهم بقدر كبير من التوجس وكأنهم ليسوا من البشر»¹. وفيما يتعلق بالنساء، يتصف مزاجهن بالتضاد بقدر أكبر: تقول بلاكمان: «لسوء الحظ أن معظم النساء لديهن مزاج خطر وصعب»².

أما الأب هنري حبيب عيروط، والذي كانت له معرفة عن قرب بالفلاح المصري، إضافة إلى كونه مصرية، فيضيف عدة صفات لصورة شخصية الفلاح المصري المختلطة. فكتب أن الفلاح المصري «يجمع في شخصه السذاجة والخبث، والفردانية والجمعية، والبخل والحرص، والمعاناة الطويلة والمزاج المضطرب». وفي الأمور المالية «كلما ازداد مقدار المال التي يخزنها الفلاح في مخبأ سري داخل بيته، كلما ازدادت فرصة أن يخرج ذلك المال أمام الناس في ولائم الأعياد وينثره من أجل المظهر والمتعة». وهذا الفلاح معتدل ومسالمة وصبور ولا يبالي، «فعقله مذعن وجبري يتقبل الأمور كما هي». ولكنه في الجانب الآخر «يتصرف بدافع اللحظة دون أي اعتبار لتمييز أو حس بتناسب الأمور، ودون تحسب لأهمية ما حدث أو عواقب ما يقوم به». وإذا ما حدث شيء «يصدمه بطريقة لا يتحملها... فإنه يرد بعنف، ويعدي الآخرين بنفس الرغبة، وفي لحظة كهذه لا تساوي حياة المرء إلا النزر القليل». وخاصة «فلاحو الصعيد [جنوب مصر] فهم كالبركان الذي ينفجر عند أقل الاحتمالات». ومع ذلك «فإن نوبات الانفجار لا تستمر طويلا، ويتبعها انسحاب أصبح عادة تلاحظ في شخصياتهم أكثر من أي أمر آخر»³.

وهذه سانيا حمادي، وهي باحثة عربية معاصرة، تعلق على التفاوت في المزاج العربي، حيث وجدت أنه مستقطب بين الغضب السريع وضبط النفس، فتقول:

(1) بلاكمان: مصدر سابق؛ ص 129.

(2) بلاكمان: مصدر سابق؛ ص 38.

(3) هنري حبيب عيروط: الفلاح المصري؛ ص 141-145.

الفصل العاشر: الحدية والعاطفة، الخيال والواقع

إن العربي نفسه الذي تتصف شخصيته بأنها عدوانية وميالة إلى العراك، والتي تبدي عاطفة شديدة خلال نوبة غضب أو أسى سريعة الاشتعال، تراه لا يظهر بشكل طبيعي بهجته أو خوفه أو ضعفه. إن هذه الأحاسيس ليست عبثية، بل هي قادمة من تعبير ايجابي مكشوف للجميع»¹.

وعلى العموم، وكما اقترحنا مسبقاً، تتمحور الحياة العاطفية للعرب حول عدة متلازمات متطابقة، وكل منها مرتبة بين حدين متناقضين. فهناك، قبل كل شيء، الاستقطاب ما بين الانسجام والخلاف. ثم يأتي الاستقطاب ما بين العار والشرف، والعنف والخضوع، والثأر والصفح، والتنافس والتعاون، والمخادعة والصراحة، والفخر والتواضع، والقسوة والرقّة، والنشاط والخمول، والاعتدال في الجنس أو المبالغة فيه.

ومن هذه المتلازمات ما هو مدعاة للإطراء ويؤدي إلى تعزيز المتلازمات الأخرى. وهكذا، على سبيل المثال، يتم توجيه السلوك والتحكم به دائماً من خلال السعي المزدوج لمحاولة تجنب ما هو مؤذ والقيام بما هو مشرف. أما المتلازمات الأخرى، وهي لا تزال مستمرة إلى اليوم، فتعمل وفق أهداف متقاطعة وتسحب الفرد باتجاهين متعاكسين. ومثال على هذا متلازمة الانسجام والخلاف: فالرغبة من أجل تحقيق الانسجام أو المحافظة عليه على نطاق واسع تعمل بعكس عمل الرغبة في الخلاف لتحقيق منافع صغيرة محلية داخلية والمحافظة عليها. إن معظم المتلازمات التي سردناها في ما سبق لا تنتمي إلى النمطين السابقين بل إلى نمط ثالث. فهي تتقاتل من أجل السيطرة على العربي، وينتج عن ذلك أنه يغير اتجاهه من حد إلى آخر: ففي لحظة يراه الناس مأخوذاً بمشاعر لا يستطيع السيطرة عليها، وفي لحظة أخرى تراه يستعيد رباطة جأشه؛ وتارة تراه عنيفاً، وأخرى تراه خاضعاً.

ولا زال ثمة استقطاب آخر يبنغي الحديث عنه؛ وهو استقطاب (الإله-الإنسان) والذي يرى حازم نسبة أنه قريب من «حالة انفصام شخصية في الأفكار والعواطف» ما بين

(1) سانيا حمادي: مزاج العرب وشخصيتهم، ص 54-55.

الفصل العاشر: الحدية والعاطفة، الخيال والواقع

«مستويين من الواقع». وهذا واضح في القوانين الحالية المستمدة من القوانين الغربية والمتبعة في العالم العربي: حيث تمتزج فيها التقاليد العربية الإسلامية مع المبادئ العلمانية.¹

(1) حازم نسيبة: أفكار القومية العربية: ص152.